أسبوعيات نائب

جمهرات مضطربة تتسابق نحو اليمين ويمين اليمين إلى ما لانهاية

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

بدأ بنيامين نتنياهو ، الذي هو بمثابة رقعة كبيرة في الوزارة المرقعة المؤقتة التي يرأسها صديقه اللدود (أو عدوه الحميم) آريئيل شارون ، بدأ عهده بأن صرح أنه لا يوافق على وثيقة ((خريطة الطريق)) المقدمة من الولايات المتحدة إلى الطرفين العربي والإسرائيلي . ونعني بالطرف العربي هنا الفلسطينيين والدول العربية التي زارها المبعوث الأمريكي في الشهر الماضي وفي جعبته أوراق إنشائية يصدق عليها ما قلناه عن مشاريع تسوية أمريكية سابقة : إنها شيك مجهول القيمة مسحوب على بنك مجهول محل الإقامة ! فهي تتكلم كلاما عاما مفاده وجوب إقامة دولة فلسطينية ، ولكنها لا تضمن تنفيذ المراحل والتوقيتات الجزافية التي تقترحها ، وهي تحيل كل شيء على المفاوضات مع الطرف الآخر ، وهي تتجاهل الإشارة إلى وقف الاستيطان فورا كما تتجاهل الإشارة إلى التزامات الولايات المتحدة السابقة بخصوص القدس ، أي أنها تترك المجال لشارون وتقدم له الغطاء المطلوب لسياسة التلهية والتخدير ، بينما تقوم الجرافات وآلات بناء المساكن الجاهزة ليلا ونهارا باغتصاب المزيد من الأراضي وتجريد المدن والقرى الفلسطينية من أراضيها ومياهها لحساب التوسع الاحتلالي والسكاني اليهودي .

لا يريد نتنياهو خريطة طريق ولا يريد طريقا من الأصل . وهذا هو موقفه من زمان وموقف زعيمه وصديقه اللدود شارون ، وهو أيضا موقف أحزاب ما يطلق عليه اليمين الإسرائيلي ، التي عمت صفوفها حركة عصبية ، تتسابق فيها جمهرات مضطربة نحو يمين اليمين ويمين يمين اليمين ويمين يمين يمين اليمين ، إلى ما لا نهاية .. وفي العادة يستخدم العالم الغربي مصطلحات اليمين واليسار تعبيرا عن مواقف اجتماعية واقتصادية تميل إما إلى المحافظة أو إلى التغيير ، أما معيار تحديد درجة اليمينية في الساحة السياسية الإسرائيلية فهو درجة العدوانية والهستيريا التي تتكلم بها كل جمهرة من هذه الجمهرات عن أمرين : أولهما مصير الشعب الفلسطيني وثانيهما مصير ما بقي من الأرض الفلسطينية بيد أصحابه .

<u>بقشيش (للسكان) الفلسطينيين</u>

اليمينيون الأوائل أمثال البولندي مناحم بيجن ، وربما الروسي آريئيل شارون ، يقولون : الفلسطينيون مجرد سكان في أرض إسرائيل (لا يزيد مركزهم القانوني بالكاد عن مركز مستأجر قديم) ، فليست لهم أرض ولا حق في المطالبة بالسيادة . وعليهم أن يقنعوا بكونهم جزءا من القوى العاملة في خدمة دولة إسرائيل لقاء نصيبهم من الأجور والبقاشيش التي يحصلون عليها . أما اليمينيون الذين بلغوا في تطرفهم يمين اليمين أمثال الحاخام الأمريكي المقبور كاهانا والوزير الجنرال اليمني المقبور زئيفي فالفلسطينيون بالنسبة إليهم زوائد لا حاجة للإسرائيليين بها .والأرض تضيق عن اليهود والعرب معا ، لذلك فالحل هو الترحيل . ويعني بالإنجليزية الترانسفير . ويبلغ الكرم والسخاء ببعض دعاته أنهم يلوحون للعرب الذين يوافقون على الترانسفير بشيء من المال مقابل سفرهم الطوعي بلا عودة .

وهناك الذين اتخذوا مواقعهم في يمين يمين اليمين أمثال الأمريكي بن يمين نتنياهو وزير الخارجية الجديد ، والحاخام العراقي المهفوف عوفاديا يوسيف ، ورئيس الأركان البولندي الجديد موشيه يعلون (في الأرض علوا كبيرا) . وهؤلاء يستخرجون كلامهم عن الفلسطينيين من جوف قاموس القذارة والجهل والأحقاد .

فرئيس الوزراء السابق وزير الخارجية الحالي هو القائل في كتابه المشهور بعنوان (مكان تحت الشمس ـ إسرائيل والعالم) : إذا كانت كل أقلية سكانية في بلد من البلدان تطمح للانفصال عن الدولة التي تقيم فيها فإن لهذه الدولة الحق في أن تفعل ما فعله الصرب في البوسنة والهرسك من تطهير عرقي أو قيام بترحيل هذه الأقلية .

والحاخام رجل الدين الذي يجب أن تكون فيه ولو مسحة خفيفة من الروحانية يقول إن الفلسطينيين أفاع وعقارب وإن الله ندم على خلقهم (!) .

ورئيس الأركان العسكري التنفيذي الأول في دولة الاحتلال يصف الفلسطينيين بأنهم سرطان .

المثل الأعلى لنتنياهو

وكل من السياسي والحاخام والجنرال لا يرى حلا لمعضلة الوجود الفلسطيني إلا بإجراء التطهير العرقي فيهم (وفق عبارة السياسي الذي لا يخشى قط مصيرا كمصير رئيس الصرب سلوبودان ميلوسوفيتش) أو بقصفهم بصواريخ (على كيف كيف جمهرة الحاخام ، حسب تعبيره وهو يخطب في الكنيس) ، أو باستئصالهم بالجراحة - كناية عن المذبحة - (حسب تعبير رئيس الأركان المزايد يمينيا ملتمسا لنفسه مستقبلا سياسيا زاهرا على طريق الجنرالات المفتوح) .

وليس كثيرا أن يبرز يمينيون على يمين هذا الصنف الأخير ! وقد يكون مثالهم الصارخ اليهودي الروسي ليبرمان زعيم حزب إسرائيل بيتنا الذي لا يكتفي بالإعراب عن الرغبة في القضاء على الفلسطينيين وحدهم ، بل يتكلم صراحة عن قصف السد العالي في جنوب مصر بقصد إغراق مصر كلها !

وليس هؤلاء في إسرائيل بالقلة التي لا يؤبه لها ، ولا بالمهمشين الذين ليس لهم من الأمر شيء . بل هم اليوم الأكثرية ، وهم الحكام ، وهم الذين ترشحهم استطلاعات الرأي للفوز في أية انتخابات من الآن وحتى خمس سنوات قادمة .

وعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية التي رافقت حكم شارون فإن الضائقة الاقتصادية التي كانت كفيلة بإسقاط أية حكومة أخرى ، لم تقلل من شعبية صنم القوة المعبود .. البلدوزر كما يدعونه .. صاحب مذابح قبية وغزة وصبرا وشاتيلا . ولهذه الشعبية الراسخة أسبابها التي بتنا نفهمها جيدا : وهي ثلاثة : كراهية العرب ، والطمع في أملاكهم ، وعقدة الخوف من المحرقة . وشارون يلبي للإسرائيليين هذه النوازع . فهو معروف بكرهه العرب وحقده عليهم لأسباب دفينة في طفولته ، والتربية الإسرائيلية النموذجية تعلم الأطفال كره العرب . وشارون معروف بأن له في سجلات الانجاز الاستيطاني دورا هائلا . وقد استعان بالتلويح بالأخطار الأمنية كلما أراد إزالة تحفظات الآخرين على الموافقة على إنشاء مستعمرة جديدة فوق موقع فلسطيني مصادر . وهو معروف أخيرا بأنه جنرال عسكري قضى شبابه قائدا لوحدات خاصة إجرامية ، ومن هنا يوحي للجمهرات المأزومة بالحماية والأمان .

ولشدة دهائه استطاع حتى الآن أن يوهم الإسرائيليين أن فشله في تحقيق الأمن والرفاه لهم كان مؤقتا ، وأنه ما زال بحاجة إلى مزيد من الوقت لتمشيط الأراضي الفلسطينية من العناصر التي يروق له أن يدعوها إرهابية .

يمينيون هناك = يمينيون هنا

ونظرا للعلاقة العضوية التي تربط إسرائيل بالولايات المتحدة ، فإن وصول اليمين الأمريكي وأقطابه إلى سدة الحكم في أمريكا عزز أطماع اليمين الإسرائيلي وفتح شهيته لانتهاز الفرصة وتنفيذ البرامج القمعية والاستيطانية القصوى ، التي لم يكن ليفكر فيها لو لم يكن المناخ في أمريكا هو هذا المناخ السائد . ولم يعد مستغربا من ناحية أخرى أن تصل إلى الحكم في إسرائيل أشد العناصر تطرفا ودموية . وحينما تمارس السي آي إيه اغتيال الأشخاص في صحارى اليمن ، فإن حديث الإدارة الأمريكية عن عدم موافقتها على إطلاق يد شارون في أعمال الاغتيال في فلسطين ليس إلا مادة لاستهلاك الفلسطينيين والعرب .

والمرء متأكد على كل حال أن هذه الأمور لا تخفى على الجميع عندنا ، ولكن لدينا مع ذلك أناسا ينطلقون من التسليم بأنه لا يمكن عمل شيء في ظل ميزان القوى الحالي ، وبناء على ذلك يجب الاستماع إلى ما تقوله أمريكا أولا بأول وانتظار الحلول من تحت أيديها ولو كانت تطبخ لنا الحجارة . وفي ذلك تبديد فاحش للوقت والمال والأعصاب ومقامرة على ورقة خاسرة سلفا ، وذلك باسم السياسة والدواعي السياسية . وأعداؤنا قالوها وما زالوا يقولونها في وجهنا : ليس في يدكم شيء تفعلونه .

من الخطأ أن نركن إلى الوعود الأمريكية قيد أنملة . فحكومة الجنرالات والحاخامات لن تغير عقيدتها التي هي عقيدة مجرمي الحرب . وإدارة بوش لن تتوقف عن التآمر على حقوقنا . وإذا كان ميزان القوى في غير صالحنا فإن السبب الوحيد لذلك أن كلا من دول المنطقة معنية بنفسها وبحساباتها دون نظر إلى إمكانيات المنطقة مجتمعة . أما نحن الفلسطينيين ، فكما قلنا سابقا : علينا أن لا نشتري بوحدتنا الوطنية أي ثمن ، لأنها عدتنا الوحيدة . وعلينا أن لا نضيع أي وقت في توفير جميع ما يلزم للدفاع عن أنفسنا والصمود ببسالة في مواقعنا أمام ثوابتنا ، إلى أن تتغير المعطيات القائمة .

طريق إلى المستنقع

استمعت إلى شابين كانا صديقين حميمين سابقا وقد درسا العلوم السياسية وحصلا على إجازتهما الجامعية ، وكثيرا ما شهدت بينهما حوارات ساخنة ، وكنت أظن أنهما سيظلان صديقين بغض النظر عن اختلاف وجهات نظرهما في معظم الأحيان ، ولكنني علمت مؤخرا أن علاقتهما شابها فتور تحول إلى برود .

وهذا تقريبا هو ما ظللت أتذكره من الحوار الطويل الذي علمت أنهما لم يتبادلا الزيارات بعده :

الأول - تظل تنتقد وتنتقد وتنتقد ! فما الذي يرضيك ؟

الثاني - وأنت تظل تبرر وتبرر وتبرر ! فما الذي يثيرك ويغضبك ؟

الأول - أظن أن الذي درس العلوم السياسية مثلنا ، وعرف أيضا أن الممارسات السياسية كانت مشوبة دائما بالعيوب وبالقصور وبطغيان الأنانيات يجب أن يتكيف مع ما يراه في الحياة من فساد .

الثاني - إذا كانت وظيفة التعليم أن تسهل تكيفنا مع الباطل والرذيلة وتهون علينا إضاعة الحق والفضيلة فخير منها أن يبقى المرء جاهلا ، فهو في تلك الحالة سيحكم بفطرته على الأقل ، والفطرة تأبى الانحراف والفساد . ولكن الحقيقة أن وظيفة العلم هي أن يهدينا للصحيح ويبعدنا عن الخطأ .

الأول - لو أنك تتجنب فقط الألفاظ الكبيرة مثل الباطل والحق والرذيلة والفضيلة والصلاح والفساد وغيرها من ألفاظ قاموس الأديان والأخلاق لكنت أكثر انسجاما مع التفكير السياسي .

الثاني - وما البديل إذا نحن نبذنا وراء ظهورنا تلك القيم ؟

الأول - البديل هو النجاح النسبي وتحقيق المنجزات وبلوغ الأهداف الملموسة .

الثاني - أهذه هي البراجماتية ؟

الأول - تقريبا .

الثاني - فأي نجاح يكون مع الظلم والسرقة والاجتراء على المال العام ؟ وأي إنجاز يعوض عن تكريه فريق من الناس في وطن لا ينصفهم ، وإفساد ضمير الفريق الآخر الذي يمارس الظلم دون أن يطرف له جفن ؟ وهل النجاح معنى مادي لا علاقة له بالبشر ؟

الأول - لا أعرف تماما ، ولكن أعرف أن هذه الأمور تكاد تكون لازمة من لوازم الحكم في معظم البلاد ، في العالم المتقدم كما في العالم المتخلف والنامي . هل رأيت كيف قامت شركات كبرى في الولايات المتحدة بخداع المتاجرين في سوق الأسهم ؟ وهل رأيت كيف أن الرئيس جورج بوش ونائبه تشيني ملوثان بهذه القصص وأن ذلك لم يمنع وصولهما إلى أعلى المراكز مع ما يقال أيضا من أن بوش متخلف في تفكيره ؟

الثاني - هل تبرر صعود نجم اللصوص وعديمي الكفاءة ؟

الأول - لا . ولكن يبدو أن المقاييس الأخلاقية لا تناسب السياسة . وقد يتطلب المشروع السياسي الاعتماد على نوعيات بشرية في منتهى القذارة والانحطاط ، ثم يتم نبذها والتخلي عنها عندما تنتهي من أداء دورها .

الثاني ـ وماذا لو انقلبت الآية ؟ ماذا لو شعرت بالخطر تلك النوعيات التي جيء بها على أنها مجرد أداة ، فساورتها الرغبة الشديدة في الحفاظ على غنائمها ومراكزها ؟ إنها ستسعى إلى إنشاء دولتها الخاصة داخل دولة صاحب المشروع . وستطيح به قبل أن يصل إلى نهاية الشوط . وهكذا تكون الخسارة خسارتين ، خسارة وقوع الظلم والفساد واستهداف الشرفاء والأبرياء طويلا وخسارة السقوط قبل تحقيق الأهداف .

الأول ـ بصراحة : أعتقد أن الأمور تسير دائما في جميع البلاد بوجود النوعيات المختلفة من البشر ، والمشكلة في طبعك المثالي المتصلب ولهذا أنت متشائم وتعقد الأمور .

الثاني ـ هل قصدت بالنوعيات المختلفة حتى اللصوص والخونة ؟

الأول ـ نعم . هكذا كان الحال دائما .

الثاني ـ بصراحة : أخشى أن المشكلة في طبعك أنت ، إذ يبدو أنك تريد أن تنغمس قليلا أو كثيرا فيما انغمس فيه الكثيرون ، لهذا فإنك بقبولك هذه الأفكار تفرش لك طريقا إلى المستنقع ... !